﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾ [العنكبوت: 39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شِبْهُ الشَّيْءِ مُنجَذِبٌ إليهِ!

لَمّا ذكر الله سبحانه في الآية السّابقة عادًا وثمودَ المتجبّرين في الأرض بغير الحقّ، القائلين: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]، والّذين لم ينفعْهم استبصارهم، فاستحبّوا العَمى على الهدى، ذكر هنا في هذه الآية أشباهًا لهم على سَنَنِهم من الّذين استكبروا في الأرض بغير الحقّ، وجحدوا أيضًا بعدَ استبصارٍ واستيقان، وكانت مقولاتُهم أشبهَ بمَقولِ عادٍ وثمودَ وفِعالِهم، فقارونُ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78]، وفرعون قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]، وهامانُ كان ذِراعَه وأداتَه ووزيرَه، فافتخروا كما افتخرت عادٌ وثمودُ، واستكبروا في الأرض بغير الحقّ مِثْلَهُم، ورأوا آياتِ الله فاستبصروها، ثمّ جَحَدوها ظُلْمًا وعُلوًّا، كما فعلت عادٌ وثمودُ من قبل كذلك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: (كبر) أصلٌ صحيح يدلُّ على خِلاف الصِّغَر، يقال: هو كَبيرٌ، وكُبار، وكُبّار[1]، وأكْبَرَ الشَّيء استعظمه، والتّكبيرُ التّعظيم والتّكَبُّر والاستِكْبارُ التَّعظُّم[2]، والاستِكْبارُ على وجْهَيْن: أحدهما: أنْ يَتَحَرَّى الإنْسانُ ويَطْلبَ أن يكونَ كبيرًا، وذلك متى كان على ما يَجِبُ، وفي المَكان الّذي يَجِب، وفي الوقْت الّذي يَجِب، فهو محمود؛ والثّاني: أن يَتَشَبَّع فيُظْهِرَ من نَفْسِه ما ليس له، فهذا هو المَذْموم، وعليه ورَدَ القرآنُ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(2) الرّازيّ، مختار الصحاح: (كبر).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كبر).

2) ﴿سَٰبِقِينَ﴾: (سبق) أصلٌ صحيح يدلّ على التّقديم[1]، والسَّبْقُ: التّقدُّم في السّير، ثمّ يُتَجَوّز به في غيره من التّقدّم، ويُستعار السَّبْقُ لإحراز الفضل والتّبريز، كما في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: 10][2]، كما يُستعار لِلحيلَةِ النّافذة في الإفلاتِ والفَوتْ، وهي المنفيّة هنا في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾؛ أي: لم يكونوا كما حَسِبوا بأنّ لهم القدرةَ على التّقدُّم بين يدَي حُكْم اللّهِ عليهم بالإهلاك، وأنّهم في موضع السّابق المتقدّم على ما أُريد بهم من عقاب فلا يدركهم ذلك.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مواكبُ الرّسالات تَثْرا، ومصارعُ المكذّبين في الثَّرَى

ما زالتِ الآياتُ تحدّثنا عن مواكبِ الرّسالات[3]، وتحكي لنا مَصارِعَ المُكذِّبين لها، والمُعاندينَ لأصحابها الرّسِل الكرام صلوات اللّه عليهم وسلامُه، فبعدما ذكر البيان الإلهيّ عاقبة عادٍ وثمودَ المُكذِّبين أتى على ذكر أمثالهم فبَيَّنَ كيف أهلك اللّه قارونَ صاحبَ الأموالِ الطّائلة والكنوزِ الكثيرة، وفرعونَ مَلِكَ الملوك في عصرِه ومِصرِه، ووزيرَه هامان، ولقد جاءهم موسى بآياتٍ بيّناتٍ تدلُّ على صدقِ رسالته، فاستكبروا في الأرض، وأبَوا أن يُصدِّقوه وأنْ يُؤمنوا به، وما كانوا فائتين من عقاب اللّه، ولا هاربينَ من قدرته، ولا سابِقينَ إلى النّجاةِ عنه؛ لأنّه قادرٌ عليهم وآخِذُهم أخْذَ عزيزٍ مقْتَدِر[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ﴾ ممّا قبلها:

يؤولُ أمرُ الأمم اللّاحقةِ مع الأمم السّابقةِ إلى المصيرِ نفسِه

قوله: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ﴾ في محلّ نصب بالعامل المُضمر،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبق).
(2) الرّاغب، المفردات: (سبق).
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11164.
(4) المَراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 140.

وهذا العاملُ المضمرُ معطوفٌ على العامل المُضمَر في قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ [العنكبوت: 38]، والتّقدير: (واذكُرْ عادًا وثمودَ، واذكُرْ قارونَ)، أوْ: وأهلكنا عادًا وثمودَ وأهلكنا قارونَ، أوْ: أخذنا عادًا وثمودَ وأخذنا قارونَ وفرعونَ وهامانَ، أوْ معطوفٌ على الضَّمير المنصوب في قوله: ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ [العنكبوت: 38] في الآية قبلَه، والتّقدير: (فصدّهم وقارون وفرعون)، أي: وصدّ قارونَ وفرعونَ، والخلاصةُ: أنّ الجملة في موضع العطف على جملة: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ [العنكبوت: 38]، أوْ على الضّمير في جملة: ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ [العنكبوت: 38]، والفرقُ بينهما: أنّ الأوّل: فيه إشراكُ قارون وفرعون وهامان في حكم العاملِ المضمر قبلَ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ [العنكبوت: 38]، والثّاني: إشراكُهم في حُكم الصَّدّ[1].

علّةُ التّرتيب بينَ الأسماء الثّلاثة:

ليس كلّ تقديمٍ في الدنيا محمودًا

تقديمُ قارونَ على فرعونَ وآله في قوله: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ﴾؛ لِشَرَفِ نَسَبِه، وكونِه مِن قَراباتِ موسى ﷺ، أوْ لِشَرفِه في العِلمِ الّذي اعتقد أنّه من عِندِه، بقوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78]، أوْ لإيمانه الظّاهر وعِلْمِه بالتّوراة، فصار أشبَهَ بحال عادٍ وثمودَ في الاستبصار بقوّة العِلم، كما استبصروا بقوّة المادّة والبُنيانِ، وذلك في قوله عنهم: ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: 38]، فلم يُفدهم كونُهم مستبصرينَ شيئًا، أوْ لأنّ إهلاكَه كان قبلَ إهلاكِ فرعونَ وهامان، فتقديمه عليهم بحسب الوجود والواقع، أوْ لأنّه لمّا كان المقصود تسليةَ النّبيّ ﷺ، فيما لقيَ من قومه؛ لِحسدهم له، وقارونُ كان من قوم موسى ﷺ وقد لَقي منه ما لَقي، فبدأ به لِشَبِه حالِ قومِ النّبيّ مع النّبيّ، بحالِ قارونَ معَ موسى ﷺ، فبدأ بما هو أعونُ على العزاء والتّجلّد وعدم الحَزَن، فإنّ الإنسان يتخفّف من

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 9/ 21.

حَرَجِ ما ألمّ به، باشتراكِ غيرِه معَه في الإصابة به[1]، وثنّى بفرعون؛ لِفُشوِّ شَرِّه، وخطَرِ نفوذِه في الإفساد والعِناد، وثَلَّثَ بعدَه بهامانَ؛ لموقعه الرُّتْبيّ من فرعون، فهو وزيرُهُ؛ ولذلك لحِقَ به، وجاءَ بعدَه.

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَقَدْ﴾:

استحقاق المكذّبين الهلاكَ بشهادة رسلِهم

جملة ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ مستأنفةٌ؛ لتقرير حُجَّةِ الإهلاك، بعدَ تقرير الإهلاك، كأنّه قيل: أهلكناهم بعدما جاءَهم بالبيّنات موسى، وكَأنّ مجيءَ موسى بالبيّنات كانَ شاهدًا على استحقاقِهِمُ الهلاكَ، ويصحّ أن تكون الجملةُ معطوفةً على قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [العنكبوت: 36] عَطَفَ الجملةَ على الجملة، والقصّةَ على القصّة[2].

دلالة اللّام في: ﴿وَلَقَدْ﴾:

تنبيه النّاس الذين اعتادوا عدمَ أخْذِ كثيرٍ من الأمور على محمل الجِدّ

(اللّام) في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ لامُ القسم وهي الموطِّئة، أوْ هي لامُ الابتداءِ المؤكِّدة، وحينئذٍ لا قسَم، وأيًّا ما كان فـ(اللّام) لتوكيد مدخولها وتحقيقِ مضمونها، وإنَّ اقترانَها بـ(قد التّحقيقيّة) توكيدٌ بعدَ توكيد، وكَأنّ المخاطبين نُزِّلوا منزلةَ المُنْكِر أوِ المتردِّد أوِ المُرْتاب فاحتاجوا لتوكيدِ الخبر، أوْ لأنّ عادةَ نوعٍ من النّاس عدمَ أخذ كثيرٍ من الأمور على محمل الجِدّ، فاستُرعيَ شأنُهم بقوّة التّوكيد لتجديد الاعتبار، وتحرّي الموعظةِ، واستدامةِ النّظر والبصَر.

غرضُ التّعبير بالمجيءِ دونَ الإتيانِ مع الآيات:

المجيءُ يُلمَحُ فيه العزمُ وسبقُ الإصرارِ، وليس ذلك في الإتيان

عبّر بالمجيءِ دون الإتيانِ في مقام البيّنات، في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ للدّلالةِ على تحقّقِ حصولِ النّبوّةِ بينهم بموسى عليه السلام، وتحقّقِ حصولِ البيّنات لهم، فإنّ المجيءَ أبلغُ على التّحقيق والتّوكيدِ من الإتيان؛ لما فيه من زيادة في بذل الجهد والمشقة في التّبليغ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 363.
(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 20/ 266.

معنى الباء في قوله ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

مصاحَبةُ المؤيِّداتِ للمؤيَّد قوّةٌ له

(الباءُ) في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ للمصاحبة، أي: مصاحَبًا بالبيّنات، وفيه إشارةٌ إلى معنى التّأييد بها، كأنّه قيل: جاءهم موسى مؤيَّدًا بالبيّنات والمعجزات؛ فإنّ الصّاحبَ يأخذُ من قوّة صاحِبه، ولا قوّةَ أحكمُ وأمْتَنُ من قوّةِ بيّناتِ الوحي وآياته الّتي لا عِصمةَ إلّا باتّباعها واتّباع المؤيَّدِ بها.

معنى (أل) في ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

استغراق جنس البيّنات وهي منظورةٌ مسطورةٌ

(أل) في البيّنات؛ للدّلالة على حقيقةِ الجنس وماهيّته؛ وذلك مبنيٌّ على أنّ البيّناتِ الّتي جاءَ بها كلّ رسول - وإنِ اختلفتْ في أفرادها - لا تختلفُ في حقيقتها وجنسِها، فهي الكلامُ الذّاتيّ للهِ سبحانَه القويّ، أوْ هي خوارقُ العادات المُعجِزةُ، وألواحُ التّوراة المكتوبُ فيها من كلّ شيءٍ موعظةً وتفصيلًا لكلّ شيء، وبهذا الاعتبار، فـ(أل) للعَهْد، و(البيّنات) صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ تقديرُه (الآياتُ أوِ المعجزات)، وإسنادُ التّبيينِ إليها مجازٌ عَقليٌّ للمبالغة؛ كأنّها لفرطِ قوّتِها وإحكامِها مُبَيِّنةٌ عن نفسها.

معنى الفاء في قوله ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾:

دلالة على تضييع فرصة الاستصلاح، وعلامةٌ على الخِذلان

(الفاءُ) في قوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ تفريعيّة، لها معنى التّسبيب، وتسبيبُ الاستكبار عن مجيءِ البيّنات كنايةٌ عن التّسجيل عليهم، والتّعريضِ بهم بارتكابِهم ما لا ينبغي انتزاعًا له ممّا ينبغي ويجِبُ عليهم ضِدُّه، إذ مجيءُ البيّناتِ يَستوجِبُ القَبولَ لها والانكسار، لا الإعراض عنها والاستكبار، ففرّعَ الشّيءَ على ضدّه؛ للتنبيه على مَدى انتكاستِهم، وتحوّلِ فِطَرِهم وتبدّلها، فاستخرجوا ممّا يوجِب الهدايةَ والإخبات، أحوالَ الإعراض والانفلات، وهذا هو معنى الكناية في التّفريع.

نكتة دخول (السّين والتّاء) على فعلِ الاستكبار:

(السّينُ والتّاء) في قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ للطّلب، وهو جارٍ على معنى بديع، وهو أسلوبُ التّجريد[1]، كأنّهم جرّدوا من أنفسهم أشخاصًا يُخاطبونهم يطلبونَ منهم التّكبّر، مبالغةً في تحقُّق تكبُّرهم وتصميمِهم عليه، وجَعْلُ الفعلِ مطلوبًا منهم، كنايةٌ عن المبالغة في الاتّصاف به، كأنّهم يُحاولونه ويجتهدونَ في تحصيله، فيلزمُ عنه الاتّصافُ به على جهة التّأكيد والمبالغة، كأنّ المستكبرَ طالبٌ من نفْسِه الكِبْرَ وحامِلُها عليه[2]، فاستلزمَ معنى الطّلب إفادةَ التّأكيد والمبالغة، وفي قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، حيثُ جعلَ المتكبّرَ على الحقّ في إعراضِه وتعنُّتِه؛ بمنزلةِ مَن جرّدَ من نفسِه شخصًا يطلبُ منه ذلك، فالتّمثيلُ حاصلٌ بتشبيه حال المتكبِّر في محاولةِ التّنصُّل من القبول والإذعان، بحالِ مَن يحرصُ على شيءٍ صعبٍ، فيطلبُه من غيره؛ ليُنْفِذَه له، بجامع الحِرص في كُلٍّ[3].

الدّلالة على الطّلب، لكنْ شرُّ النّاس مَن كان الكِبْرُ مَطْلَبَه

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للظرفيّةِ الحقيقيّة، وليس معناه أنّهم في داخلِ تلافيفِ الأرض، فهذا غيرُ واقع، بل معنى الحقيقة في الظّرفيّة، أنّ الأرضَ وعاءٌ يَضمُّهم وهم مظروفونَ في داخل هذا الكوكبِ الكرويّ، فهم بادونَ داخلَ هذا الوعاء بالنّسبة لوضع الأرض المرئيّ من خارجِها من الفضاءِ الّتي تسبحُ فيه، أوِ التّعبيرُ بحرف الظّرفيّة للإشارةِ إلى أنّ ما يترتّبُ على استكبارِهم من الإفسادِ يُصيب الأرض نفسَها ويغيّر في تكوينها.

ظرفيّةٌ حقيقيّةٌ دالّةٌ على الإفسادِ في الوعاء الّذي يحويهم (الأرض)

فائدة تعليق الظّرفيّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالاستكبار:

تعليقُ قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ باستكبارِهم في قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي

لا خيرَ في رياسَة تَعقُبُها تَعاسَة

(1) عبد الرّحمن، البلاغة العربيّة: 2/ 434.
(2) الزّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 237.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 13/ 343.

ٱلْأَرْضِ﴾؛ للإشعار بأنّ استكبارَ كلٍّ منهم كانَ في جميع البلادِ الّتي هو منها، فيومِئ إلى أنّ كلّ واحدٍ مِن هؤلاء كان سيّدًا مُطاعًا في الأرض[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

بسط النُّفوذ على الأرض فيه إغراء بالإفساد لِمَنْ لا يشكرُ ولا يُبْصِر

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من قوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للعهد، على معنى إرادةِ أنْ يكون المعهودُ أرضَ كلٍّ منهم، الّتي يبسطُ نفوذَه عليها، كما يقالُ: هذه أرضُ فلان، أي: مِنْطَقَتُه التي يحكمُها، أوْ أنْ يكونَ المعهودُ الكرةَ الأرضيّةَ بكاملها، مبالغةً في انتشار استكبارِ كلٍّ منهم في البلاد، حتى كأنّه يعمّ الدنيا كلّها، فالعهد الأوّل على التّقييد، ويصحّ معه أن تُعْقَبَ (أل) بالضّمير أي: فاستكبروا، كلٌّ في أرضه، والعهدُ الثّاني على الإطلاق[2]، ولا يبعدُ أنْ تكون (أل) للاستغراقِ العرفيِّ، فيكونُ الاستكبارُ في جميع أمكنةِ الأرضِ عمومًا عرفيًّا مبالغةً.

معنى الواو في قوله ﴿وَمَا كَانُواْ﴾:

تناقُض مَنْ جمعوا بين الاستكبارِ والعجزِ

جملةُ: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ حاليّةٌ من ضميرِ الجمع الفاعل في: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾، أي: استكبروا والحالُ أنّهم ما كانوا سابقينَ عقوبةَ اللّه بالإفلاتِ والفوات منها، فلا يسبقونَها، وفائدةُ الواو الحاليّة: إفادةُ أنَّ عدمَ سَبْقِهم ثابتٌ ومتحقّقٌ قبل استكبارهم، فهم غيرُ سابقين حتمًا سواءٌ استكبروا أمْ لا، وأيضًا: إفادةُ أنّ نفيَ سَبْقِهم مُزامنٌ لوقتِ استكبارِهم، كأنّه قيل: استكبروا في الوقتِ الّذي لا سبْقَ لهم فيه، أي: حصلَ استكبارُهم في الوقتِ الّذي لا حولَ لهم ولا قوّة على الإفلاتِ والفوات[3]، ويصحُّ أنْ تكون جملةُ: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾[4]، والمراد: أنّهم جمعوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 250.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 250.
(3) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 297، 306، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 250.
(4) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 20/ 267.

بين الاستكبارِ والعجزِ عن الإفلات، فجمَعوا بذلك بينَ الشّيءِ ونقيضِه، وهذه عادةُ الكافر، أنّه متورِّطٌ في التّناقض.

الكناية عن فِعْل اللهِ:

قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ كنايةٌ عن لازمه، مِنْ أنّ استكبارَهم جاءَ على غير طائلٍ، أي: استكبروا في حالٍ لا فائدةَ لاستكبارِهم، وكنايةٌ عن فِعْل اللّهِ فيهم بالغَلَبَةِ والقَهْر[1].

معنى (ما) وغرضُ دخولها على فِعْل الكون:

تأكيد عجزهم عن استباقِ ما قدّرَهُ الله

(ما) في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ تدلّ على نفي الماضي البعيد، وفعلُ الكونِ الماضي؛ يفيد تحقيقَ نسبةِ اسم (كان) معَ خبرها، وتأكيدَ عراقتهم في نفي هذا الحُكم عنهم، ومعناه: أنّهم مجبولونَ على عدم الفوْتِ ممّا أراده اللّه، فهذا في طبيعتِهم لا ينفكّ عنهم، فأنّى لهمْ أنْ يُفْلِتوا، وقد تَظاهرَ على تقريرِ هذا المعنى مجيءُ الوصفِ على وِزان اسم الفاعل: ﴿سَٰبِقِينَ﴾[2].

نكتةُ حذفِ المتعلَّق:

لا مَفَرّ من مُلاقاةِ ما أرادَه الله بهم

حذفُ متعلّق: ﴿سَٰبِقِينَ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾؛ للتعميم، ليتّسِعَ تقديرُ المتعلّق بحسبِ كلّ عقْلٍ في تصوّرِه وطاقتِه منَ الوعي، فيصحّ تقدير: (وما كانوا سابقينَ عقابَنا وأخْذَنا) جريًا على المضمونِ السّابق بتقدير الإهلاك، أوْ (وما كانوا سابقينَ غيرَهم في الكفر وعاقبتِه منَ الإهلاك، فقد سبقَهم للكفْر قرونٌ كثيرة فأهلكناهم)، أوْ (وما كانوا سابقين أولياءَنا في استحقاقِ العاقبة والفَوْز)[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستكبار والبَطَر:

الاستكبارُ نابِتَةُ البَطَر

البَطَر: دَهَشٌ يعتري الإنسانَ من سوءِ احتمالِ النّعمةِ وقلّةِ القيام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 250.
(2) فاضل السّامَرّائيّ، معاني النّحْو: 4/ 192.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 317، والقُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 344.

بحقّها، وصَرْفِها إلى غيرِ وجْهِها[1]، فالبَطَر طغيانٌ بالنّعمة، يؤدّي إلى كراهةِ الحقّ والتّكبّرِ عنهُ برفضِهِ وعدمِ قبوله، فكأنّه استغنى بالنّعمةِ، فتكبّرَ على الحقّ بها؛ لعدمِ حاجتِهِ إليه بظنِّهِ[2]، والبطَر: الحيرةُ، ومعناه: أنْ يَتحيّرَ عندَ الحق فلا يراهُ حقًّا[3]، فالبطرُ - في ضوءِ ما سبقَ - فسادُ النّفس إزاءَ تلقّي النّعمة، ببَخْسِ قيمتها، أوْ بالإفسادِ بها فتُهْدَر، بل تكونُ وبالًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: 58]، أي: استعملتْها في الفساد، فأهدَرَتْها، وكما قال ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ»[4]، أي: (رفضُهُ تَعَظُّما أوْ أنَفَةً، ممّا يعني عدمَ تقديرِ قيمته أوِ اعتدادَه بلا قيمةٍ)[5]، والحديثُ الشّريفُ من باب تعريفِ الشَّيءِ بسببِهِ، فالبَطَر هو سببُ الكِبْر والتّرفّعِ على الحقّ.

وأمّا الكِبْرُ والتّكبّرُ والاستكبارُ فهو التّلبّسُ بصفة الكِبَر بحقٍّ أوْ بغيرِ حقّ، طابقَ الواقعَ أوْ خالفَه، والكِبَر خلافُ الصِّغَر، وأصلُه في تعاظُم الأجرامِ المحسوسة وتكاثُرِها في الحجم والمقدار، ويستعارُ للكيفيّة النّفسيّة الّتي تُشْعِر الإنسانَ بتعاظُم الحالِ وكِبَرِ الشّأن، سواءٌ أحسّ ذلك في نفسه، فيرى نفْسَه أكبرَ من غيره، أوْ أحسّه في غيره، فيرى غيرَه أكبرَ، والتّكبّرُ قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا، فالأوّل: أنْ تكون الأفعالُ الحسنةُ كثيرةً في الحقيقة وزائدةً على محاسنِ غيره، وعلى هذا وصْفُ اللّه تعالى بالتّكبّر، قال تعالى عن نفسه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23]، والثّاني: أنْ يكونَ متكلِّفًا لذلك متشبِّعًا، وذلك في وصْفِ عامّة الناس، نحوُ قوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: 72]، ويدلّ على أنّه قد يصحّ أنْ يوصفَ الإنسانُ بذلك ولا يكونَ مذمومًا، قولُه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146] فجعلَ متكبّرينَ بغيرِ الحقّ، ومفهومُه: وقوع التّكبّر بالحقّ[6].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (دهش).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (بطر).

(3) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (بطر).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه باب تحريم الكبر وبيانه، الحديث رقم: (91)، ولفظ الحديث عن عبد الله بن مسعود عن النّبيّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة قال إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط النّاس»، وأخرجه الترمذي، سنن الترمذي، كتاب البر والصّلة، الحديث رقم: (1999)، وأخرجه أبو داود في سننه، الحديث رقم: (4092).

(5) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بطر).

(6) الرّاغب، المفردات: (كبر).

وعليه: فالفرقُ الدّقيق بين الكِبْر والبَطَر: أنّ البَطَر لا يكون إلا مذمومًا، ولذلك لا يوصفُ به المولى سبحانه وتعالى، وأمّا الكِبْرُ فقد يقع محمودًا ومذمومًا؛ ولذلك لم يقع الاستكبارُ في القرآن إلا مذمومًا به الإنسان؛ لأنّ (السّين والتّاء) تدلّان على الطّلب، والطّلبُ في ذاته يدلّ على عدم الاتّصاف، أوْ تكلّفِ الاتّصاف، فيكونُ مذمومًا، والبطَرُ هو مُسبِّبُ الاستكبارِ في الإنسان، لأنّ النّعمةَ تُطغي والغِنَى يُنْسي، فيَتوهّمُ المستكبِرُ عدمَ حاجته إلى الإذعان للحقّ، فيَستعلي عليه وعلى أهله بالرّفض والازدراء.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»